Predestination in the Quran and Sunnah and refuting its misconceptions about them

Amjad Yahya Al-Majali
University of Jordan, Faculty of Sharia, Department of Fundamentals of Religion, Division of Creed

Atta Allah Bakhit Al-Maayta
University of Jordan, Faculty of Sharia, Department of Fundamentals of Religion, Division of Creed

majaliamjad73@gmail.com

Received:12/2/2024 Accepted:17/7/2024

Abstract:

This research aims to respond to the suspicion of determinism that appeared at the beginning of the second century AH at the hands of Jahm bin Safwan, the founder of the Jahmite sect - the Jabriyah - which is based on the fact that man has no will or choice, and that he is forced to do his actions. They relied on verses from the Holy Quran and hadiths from the Noble Prophetic Sunnah that they thought indicated determinism, because they mixed up determinism and destiny, and believed that destiny means compulsion. This research aims to respond to these suspicions that they thought indicated determinism from the Qur'an and Sunnah. In this research, the analytical approach was followed by reading the information related to the subject, then analyzing some information, especially those related to determinism, then criticizing these suspicions and responding to them and deducing some responses to them. The most important results of the research were that destiny and compulsion do not have the same meaning, and that the Holy Quran and the Prophetic Sunnah did not use the word compulsion at all, and that many texts of the Holy Quran and the Prophetic Sunnah showed that man has a choice and is not forced to do his actions, and that the verses and hadiths that were used as evidence by those who said compulsion do not indicate it. If understood correctly, and combined with other verses that indicate choice.

Keywords: destiny, algebra, choice, writing, creation.

الجبر في الكتاب والسنة ونفي شبهته عنهما

أمجد يحيى المجالي
الجامعة الأردنية، كلية الشريعة، قسم أصول الدين، شعبة العقيدة
majaliamjad73@gmail.com

عطا الله بخيت المعايطة
الجامعة الأردنية، كلية الشريعة، قسم أصول الدين، شعبة العقيدة
majaliamjad73@gmail.com

الاستلام :2024/2/12 القبول:2024/7/17

الملخص:

يهدف هذا البحث للرد على بدعة الجبر التي ظهر القول بها في بداية القرن الثاني الهجري، على يدي الجهم بن صفوان مؤسس فرقة الجهمية – الجبرية – ، التي تقوم على أنَّ الإنسان لا إرادة له ولا اختيار، وأنّه مجبور على أفعاله، واستندوا إلى آيات من القرآن الكريم، وأحاديث من السنة النبوية الشريفة ظنُّوا أنَّها تفيد الجبر، وذلك لأنَّهم خلطوا ما بين الجبر والقدر، واعتقدوا أنَّ القدَر يعني الجبر، فيهدف هذا البحث للرد على هذه الشبهات التي ظنُّوا أنَّها تدلّ على الجبر من الكتاب والسنة، هذا وقد اتُّبع في هذا البحث المنهج التحليلي بقراءة المعلومات المتعلقة بالموضوع، ثمَّ التحليل لبعض المعلومات خاصّة المتعلقة بشُبَه الجبر، ثمَّ النقد لهذه الشُّبه والردّ عليها واستنباط بعض الردود عليها، وكانت أهم نتائج البحث: أنَّ القدَر والجبر ليسا بمعنى واحد، وأنَّ القرآن الكريم والسنة النبوية لم يستعملا لفظ الجبر البتة، وأنَّ كثيرًا من نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية بيّنت أنَّ الانسان مخيرٌ وليس مجبرًا على أفعاله، وأنَّ الآيات والأحاديث التي استدلّ بها مَن قال بالجبر؛ لا تدلّ عليه إذا فهمت فهما سليمًا، وجمعت مع الآيات الأخرى التي تدل على الاختيار.

الكلمات المفتاحية: القدر، الجبر، الاختيار، الكتابة، الخلق.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على أشرف خلق الله أجمعين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد:

إنّ موضوع الجبر في القدر من الموضوعات المُهمّة في العقيدة الإسلامية، وقد كثر الخوض فيه وتعدّدت الآراء حوله، وهو موضوع يبحث في أفعال العباد، وعلاقتها بأفعال الخالق سبحانه وتعالى، وقد ضلَّ في فهمه بعضهم، واهتدى لفهمه آخرون، وممّن ضلّ في فهمه فرقة نسبت إليه، وهي فرقة الجهمية –الجبرية– التي قالت إنَّ الإنسان لا إرادة له في اختيار أفعاله وهو مجبر عليها، وأنَّه كالريشة في مهبّ الريح، وقد استندت هذه الفرقة إلى بعض النصوص من الكتاب والسنة التي اعتقدت أنّها تفيد الجبر، وتغافلت عن النصوص الأخرى التي تثبت حرية الإنسان في اختيار أفعاله، هذا وقد تعدّدت أشكال الجبر ولم تقتصر على اعتقاد هذه الفرقة، بل إنَّه أخذ أشكالًا أخرى في مختلف نواحي الحياة، حتى أصبح ظاهرة موجودة في حياتنا، وأصبح له تأثير كبير على سلوكنا وأعمالنا، وكثير من الناس يحتجّ به على تقصيره وأخطائه، وهذه الدراسة تسعى للبحث في هذا الموضوع من حيث معناه، وظهوره، والشبه من الكتاب والسنة التي تعلق بها من قال به، والرد على هذه الشبه، هذا وبالله التوفيق، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مشكلة الدِّراسة وأهميّتها وأهدافها:

تتمثل مشكلة الدِّراسة في الإجابة عن السؤال الآتي:

هل هناك دليل صريح من الكتاب أو السنة على الجبر؟

ويتفرع عن هذا السؤال الأسئلة الآتية:

1. هل معنى القدر والجبر واحد؟
2. ما العلاقة بين القدر والجبر؟
3. متى ظهر القول بالجبر والعوامل التي أثّرت في ظهوره؟
4. هل هناك آيات من القران الكريم تفيد معنى الجبر؟
5. هل هناك أحاديث نبوية تفيد معنى الجبر ؟

أهمية الدِّراسة:

تبرز أهمية الدِّراسة في:

1. موضوع الجبر له ارتباط وثيق بالقدر، والقدر هو الركن السادس من أركان الإسلام، وهو من أصول العقيدة في الإسلام.
2. موضوع الجبر من المواضيع التي كثر الخوض فيها، وتعدّدت الآراء فيه، ومن المهم فهمه فهمًا سليمًا.
3. محاربة ظاهرة الجبر التي انتشرت بين الناس، وعلق عليها الكثير منهم أخطاءه ومعايبه.

أهداف الدِّراسة:

1. توضيح معنى القدر والجبر.
2. توضيح العلاقة بين القدر والجبر.
3. بيان وقت ظهور الجبر والمؤثرات الخارجية التي أثّرت في ظهوره.
4. الرد على الشُّبه من القرآن الكريم التي تعلق بها مَن قال بالجبر.

5. الردّ على الشُّبه من السنة النبوية التي تعلق بها من قال بالجبر.

منهج البحث:

1. المنهج التحليلي: قراءة المعلومات المتعلقة بالجبر والشُّبه التي تعلق بها الجبرية وتحليلها.
2. المنهج النقدي: بانتقاد الشُّبه التي استدلّ بها الجبرية، وذكر الردود عليها واستنباطها.

الدراسات السابقة:

هناك دراسات تحدّثت عن الجبر، وأغلبها تناولت الجبر مع الاختيار، وركزت على آراء المذاهب المتعدّدة فيهما، وأدلة كلّ مذهب، ومقارنة الأدلة والترجيح بينها، ومن هذه الدراسات:

1. الجبر والاختيار في الفكر الإسلامي، صالح الشيبي، رسالة دكتوراة، جامعة الملك عبد العزيز 1401هـ، 1986م. تناول الباحث في هذه الرسالة الجبر والاختيار في عصر النبي – صلى الله عليه وسلم–، وموقف النبي–صلى الله عليه وسلم– منهما، وبين آراء الفرق المختلفة في الجبر والاختيار، خاصّة القدرية والجهمية، واستفادت الدراسة الحاليّة من هذه الدراسة السّابقة في العرض الموسّع لآراء الفرق في المسألة وأدلتها ومناقشتها، وقد توسّعت الدراسة الحاليّة في عرض الأدلة من القرآن الكريم والسنة النبوية، التي استدلّ بها الجبرية على شبهة الجبر، والردّ على هذه الشبه وتفنيدها.
2. أفعال العباد بين الجبر والاختيار، دراسة تحليلية في العقيدة الإسلامية على ضوء الكتاب والسنة، محمد حسن رباح بخيت، رسالة دكتوراة، 1417هـ، 1996م، جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، السودان، تناول الباحث عدّة مسائل، هي: الإيمان، وإرادة الخالق، وإرادة المخلوق، والهدى والضلال، وأفعال العباد في الكتاب والسنة، وأفادت الدراسة الحاليّة من التفصيل في إرادة الخالق، والفرق بينها وبين إرادة المخلوق، وعلاقة ذلك بالجبر والاختيار، والذي أضافته هذه الدراسة مناقشة شُبهة الجبر في الكتاب والسنة، والردّ عليها.

خطة البحث:

1. المقدمة.
2. المبحث الأول: تعريف القدر والجبر والعلاقة بينهما وظهور القول بالجبر.
3. المطلب الأول: تعريف القدر والجبر.
4. المطلب الثاني: العلاقة بين القدر والجبر.
5. المطلب الثالث: ظهور القول بالجبر.
6. المبحث الثاني: الموقف من الجبر في الكتاب والسنة وردّ شُبهته عنهما.
7. المطلب الأوّل: الموقف من الجبر في القرآن الكريم ورد شُبهته عنه.
8. المطلب الثاني: الموقف من الجبر في السنة النبوية ورد شبهته عنها
9. النتائج والتوصيات.

المبحث الأوّل: تعريف القدر والجبر والعلاقة بينهما وظهور القول بالجبر.

- **المطلب الأوّل: تعريف القدر والجبر:**

القدر لغة: القدْرُ والقَدَرُ القضاء والحكم، وهو ما يقدّره الله عز وجل من القضاء ويحكم به من الأمور، والقَدرُ الاسم، والقَدْرُ المصدر، والقدر: القضاء الموفق، يقال: قدر الإله كذا تقديرًا، إذا وافق الشيءُ الشيءَ، قلت: جاء قدره، ويذكر أنّه بمعنى النّظر والتدبير فيقول: قدرت الأمر كذا أقدر له وأقدر قدرًا، إذا نظرت فيه ودبرته وقايسته، وقدر القوم أمرهم يقدرونه قدرًا: دبروه، وقدرت عليه الثوب قدرًا فانقدر أي جاء على المقدار[1].

هذه بعض المعاني التي ذكرها ابن منظور في معنى القدر، وتدور حول معنى الحكم والقضاء والنظر والتدبير. أمّا الراغب الأصفهاني(2) فيقول: "القدر: وقت الشيء المقدر له والمكان المقدر له، قال تعالى: ﴿إِلَىٰ قَدَرٍ مَّعْلُومٍ﴾ (المرسلات: 22)، وقال: ﴿ فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ (الرعد: 17)"، فذكر أنّ معنى القدر هو التقدير المكاني أو الزماني، ويقول: "فتقدير الله على وجهين، أحدهما بالحكم منه أن يكون كذا أو لا يكون كذا، إمّا على سبيل الوجوب، وإمّا على سبيل الإمكان، وعلى ذلك قوله: ﴿قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: 3)، والثاني بإعطاء القدرة عليه"(3)، فالمعنى المذكور في الآية يدلّ على الأجل المحدّد.

القدر اصطلاحًا: يقول الإمام النووي(4): "معناه أنّ الله تبارك وتعالى قدر الأشياء في القدم، وعلم سبحانه أنّها ستقع في أوقات معلومة عنده سبحانه وتعالى، على صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها الله تعالى"[5].

---

(1) انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، ج12، ص36–39، دار صادر بيروت، ط3، 2004.

(2) أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل، أديب وعالم عاش في القرن الحادي عشر، عاش في بغداد، ألف عدة كتب في التفسير والأدب والبلاغة. انظر: الأعلام للزركلي

(3) الراغب الأصفهاني، محمد بن مفضل، المفردات، ص395–396، تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت.

(4) أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري الحوراني الدمشقي النووي، محدّث وفقيه ولغوي، أحد أبرز العلماء في الفقه الشافعي ولد سنة(631هـ) بقرية نوى من قرى حوران السورية، ونسب إليها، له العديد من المؤلفات من أهمّها رياض الصالحين، والأربعين النووية، توفي سنة (676هـ). انظر: كتاب الامام النووي، عبد الغني الدقر.

(5) مسلم، مسلم بن حجاج، صحيح مسلم بشرح النووي، ج 1، ص154، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.

ويقول الإمام السفاريني[6]: "القدر ما سبق به العلم، وجرى به القلم ممّا هو كائن إلى الأبد، وأنّه عزّ وجل قدّر مقادير الخلائق، وما يكون من الأشياء قبل أن تكون في الأزل، وعلم سبحانه أنّها ستقع في أوقات معلومة عنده تعالى، وعلى صفات مخصوصة، فهي تقع على حسب ما قدرها"[7].

وهذا تعريف السلف للقدر، ويدلّ على الارتباط بين المعنيين اللغوي والشرعي الاصطلاحي، وهو يقوم على التقدير للمخلوقات، ووقوع الأحداث في أوقات محددة.

أما تعريف القدر عند الأشاعرة[8] فهو: إيجاد الله الأشياء على قدر مخصوص ووجه معين أراده الله تعالى، فهو عبارة عن الإيجاد عندهم، وهو من صفات الأفعال[9].

وقال الماتريدية [10]: القدر هو تحديد الله أزلًا كلّ مخلوق بحدّه الذي يوجد عليه من حسن وقبح، ونفع وضرّ، إلى غير ذلك، فهو علمه تعالى أزلًا بصفات المخلوقات، وهو عندهم راجع لصفة العلم وهي من صفات الذات[11].

ويميل الباحثان إلى تعريف السلف للقدر الذي يعني: أنّه علم الله تعالى السابق للأشياء والأحداث وتقديره لها، وكتابتها عنده في اللوح المحفوظ، وخلقه لها حين يحين وقتها كما قدّرها، ويلاحظ أنّ تعريف السلف قد جمع بين تعريفي الأشاعرة والماتريدية للقدر، فهو جمع بين علم الله تعالى السابق للأشياء والأحداث، وإيجادها وخلقها كما علمها سبحانه وتعالى.

أمّا معنى الجبر، فإذا رجعنا إلى معاجم اللغة وما ذكرته عن معنى الجبر، نجد أنّ الجبر مأخوذ من الإجبار: أن تجبر الإنسان على ما يريد وتُكرهه، وجبرته أيضًا: بمعنى أجبرته، والجبر: خلاف العدل، وقوم جبريّة: خلاف العدليّة [12].

ومعنى آخر للجبر: خلاف الكسر... وخلاف القدر، وانجبر، وتجبّر، واجتبره فتجبّر: أحسن إليه، أو أغناه بعد فقر فاستجبر واجتبر، وعلى الأمر أكرهه، كأجبره، والجبرية بالتحريك: خلاف القدرية[13].

وسمّى الله نفسه الجبَّار العزيز، أي قهر خلقه فلا يملكون منه أمرًا، وله التجبر وهو التعظيم. والجبّار: العاتي على ربّه، القتّال لرعيته، والجبّار من الناس العظيم في نفسه، لا يقبل موعظة أحد[14].

وقال ابن منظور [15]: "وجبر الرجل على الأمر يجبره جبرًا، وجبورًا، وأجبره أكرهه، والجبر: تثبيت وقوع القضاء والقدر، والإجبار في الحكم، يقال أجبر القاضي على الحكم إذا أكرهه عليه"[16].

هذه المعاني التي ذكرت للجبر تدور حول معنى الإكراه والقهر، أو معنى جبر الكسر والإحسان إلى المحتاج إليه، والمعنى الأول هو الذي يتوافق مع المعنى المتداول اصطلاحًا للجبر وهو: إجبار الناس على فعل شيء من غير إرادة أو مشيئةٍ لهم.

ويعرّف الجبر أيضًا بأنّه: نفي الفعل عن العبد، وإضافته إلى الرب، أي أنّ الله يجبر العباد على أعمالهم، والعباد مجبورون على أفعالهم، ليس لهم أيّ دور فيها، أو هم كورقة الشجر تحركها الرياح، وإنّما تضاف الأعمال إلى العباد على جهة المجاز فقط.

والجبرية تنقسم إلى قسمين: جبرية خالصة: وهي التي لا تثبت للعبد فعلًا ولا قدرة على الفعل أصلًا، والقسم الثاني متوسطة: وهي التي تثبت للعبد قدرة غير مؤثّرة[17].

- **المطلب الثاني: علاقة القدر بالجبر:**

بعد التعرف إلى معنى القدر والجبر، وتبيّن أنّهما ليسا بمعنى واحد، لكن قد يلتبس معناهما على البعض، فيظن أنّ معنى القدر هو الجبر، والحقيقة أنّ القدر لا يعني الجبر الذي قالت به الجبرية من نفي الاختيار عن الإنسان في أفعاله وأنّه مكره عليها، وهذا الفهم يعارض ما جاء في

(6) محمد بن أحمد السفاريني، (1114–1188هـ)، علامة وفقيه ومحدث، ولد في قرية سفارين من قرى نابلس بفلسطين، ورحل إلى دمشق وتعلم فيها. انظر: الأعلام للزركلي، ج6، ص240.

(7) السفاريني، محمد بن احمد، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية، شرح الدرة الرضية في عقيدة الفرقة المرضية، ج1، ص348، المكتب الإسلامي.

(8) الأشاعرة هم فرقة كلامية ويقال لهم الأشعرية، وهم أتباع الإمام أبي الحسن الأشعري الذي كان من المعتزلة، ثم خالفهم وتركهم، وانتقل الى مذهب ابن كلاب وهي المرحلة الثانية من المراحل التي مرّ بها الأشعري، ثم انتقل الى المرحلة الثالثة الى مذهب السلف وأعلن انتسابه إلى السنة، وإلى الإمام أحمد بن حنبل. انظر: القرضاوي، الإيمان بالقدر، ص16، مصطفى بن محمد بن مصطفى، أصول وتاريخ الفرق الإسلامية، ص593.

(9) الباجوري، إبراهيم، شرح جوهرة التوحيد، ص239–240، تحقيق: محمد أديب الكيلاني وآخرين، مكتبة الإسكندرية.

(10) تنتسب إلى أحد علماء القرن الثالث الهجري، وهو محمد بن محمد المعروف بأبي منصور الماتريدي، ولد في ماتريد وهي من بلدان سمرقند، توفي سنة 333هـ على أرجح الأقوال، أحد كبار علماء الفقه الحنفي في عصره، واتّحد مع الأشعري في محاربة المعتزلة، وكان في العقائد على اتّفاق مع ما قرّره أبو حنيفة في الجملة، مع مخالفته في بعض الأمور. انظر: مصطفى بن محمد بن مصطفى، ص632.

(11) الباجوري، ص240.

(12) الصاحب، إسماعيل بن عباد، المحيط في اللغة، ج:7، ص:97، ت: محمد آل ياسين، عالم الكتب، ط1، 1414هـ –1994م.

(13) الفيروزأبادي، محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، ص:325، ت: يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، 1415هـ –1995م.

(14) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، كتاب العين، ج1، ص:215، ت: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1424هـ – 2003م.

(15) محمد بن مكرم بن علي أبو الفضل جمال الدين بن منظور الأنصاري، ولد سنة 630 هـ، أديب، مؤرخ، عالم في الفقه الإسلامي واللغة العربية، من أشهر مؤلفاته معجم لسان العرب، توفي في مصر سنة 711هـ، الأعلام للزركلي.

(16) ابن منظور، لسان العرب، ج4، ص:116.

(17) المحمود، عبد الرحمن بن صالح، القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، ص200–201 ط2، 1418هـ –1997م.

كتاب الله، وسنة النبي –صلى الله عليه وسلم– من أنّ الإنسان له اختيار في أفعاله، ويحاسب على هذا الاختيار، وفقًا لقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ (البقرة: 286)، وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: 182)، وقوله: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء: 79)، وغيرها من الآيات التي تثبت اختيار الإنسان ومسؤوليته عن أعماله.

وأمّا الأحاديث النبوية الشريفة فقد أثبتت للإنسان اختياره لأفعاله، ومن هذه الأحاديث: الحديث القدسي الذي يرويه النبي –صلى الله عليه وسلم– عن ربّه حيث قال فيه: "يا عبادي إنّما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثمّ أوفيكم إيّاها، فمن وجد خيرًا؛ فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنَّ إلا نفسه[18].

ويثبت النبي –صلى الله عليه وسلم– أثر الوالدين غير المسلمين في أولادهم، وأنّ ذلك سببًا في انحرافهم عن الفطرة، فيقول: "كلّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه، أو ينصّرانه، أو يمجّسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسّون فيها من جدْعَاء"، ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الروم: 30) [19].

ومعنى قول النبي –صلى الله عليه وسلم–: تنتج البهيمة بهيمة جمّاء، أي أنّها متكاملة الأطراف عندما تولد، ثمّ يحصل فيها النقص من الجدع وغيره، لأجل تصرف الإنسان، وهكذا الإنسان عندما يولد يولد على الفطرة، لكن يحدث عنده النقص من التهوّد والتنصّر وغيرهما بسبب تصرف والديه، فلو أنَّ الله أراد أن يجبر الإنسان على هذه الفطرة، لما كان هناك أثر خارجي يؤثّر عليها.

وهذه العلاقة بين القدر والجبر هي ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم، من أنّ القدر لا يعني إجبار العبد على فعله وعدم اختياره له، ويدلّ على هذا الفهم كلام للإمام علي ابن ابي طالب –رضي الله عنه– عندما سأله أحد أفراد جيشه وهو منصرف من صِفّين فقال: يا أمير المؤمنين، أخبرنا عن مسيرنا إلى الشّام، أبقضاء الله وبقدره، أم غيرهما؟ قال علي –رضي الله عنه– : والذي خلق الحبة، وبرأ النسمة –خلقها– ما علوتم تلة، ولا هبطتم واديًا إلا بقضاء من الله وقدره، قال الشيخ: عند الله احتسب عنائي، وإليه أشكو خيبة رجائي، ما أجد لي من الأمر شيئًا: قال بلى، قد أعظم الله لكم الأجر على مسيركم وأنتم سائرون، وعلى مقامكم وأنتم مقيمون، وما وضعتم قدمًا ولا رفعتم أخرى، إلا وقد كتب الله لكم أجرًا عظيمًا، قال الشيخ: كيف يا أمير المؤمنين ساقنا وعنهما وردنا وصدرنا؟ قال: علي –رضي الله عنه– أيّها الشيخ، لعلك ظننته قضاء جبرًا، وقدرًا قسرًا، لو كان ذلك كذلك لبطل الأمر والنهي والوعد والوعيد، وبطل الثواب والعقاب، ولم يكن المحسن أولى بمثوبة الإحسان من المسيء، ولا المسيء أولى بعقوبة الإساءة من المحسن[20].

وهذا الكلام الأخير لعليّ –رضي الله عنه– يبيّن العلاقة بين القدر والجبر، وأنّ القدر لا يعني الجبر، ولو كان القدر يعني الجبر لما كان هناك حساب على أعمال العباد؛ لأنّهم لا اختيار لهم في عملها؛ فيبطل عند ذلك الأمر والنهي، والثواب والعقاب.

وكان علماء السلف ينكرون لفظ الجبر وإطلاقه على ما يؤدّيه الإنسان من أفعال، ونقل ابن القيم[21]– رحمه الله – هذا الرأي عن الأوزاعي[22]، والثوري[23]،، وعبدالرحمن بن مهدي[24]،، وأحمد بن حنبل، وغيرهم من أئمة السلف أنّهم قالوا: إنّ هذا اللفظ لا يثبت ولا ينفى مطلقًا فلا يقال مطلقًا: جبر، ولا يقال: لم يجبر، وأنكروا إطلاق القول بأنّ الإنسان مجبر على فعله لأنّ لفظ الجبر مجمل، فقد يراد بالإجبار معنى الإكراه، فيكون معنى أجبر الله العباد، أي أكرههم على أفعالهم، وإطلاق هذا على الله خطأ، لأنّ الله أعلى وأجل من أن يجبر أحدًا، وأمّا إطلاق الجبر مرادًا به بأنّ الله جعل العباد مريدين لمَن يشاء منهم مختارين له من غير إكراه فهذا صحيح[25].

(18) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والأدب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث 2577، ج16، ص132–133.

(19) البخاري، إسماعيل بن إبراهيم، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه وهل يعرض على الصبي الإسلام، رقمه 1358، ص209، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، مكتبة فياض، المنصورة.

(20) ابن بطة، الإبانة الكبرى، كتاب القدر، ت: آدم الأثيوبي: ج2، ص250، رسالة علمية بجامعة أم القرى.

(21) محمد بن أبي بكر بن أيوب شمس الدين أبو عبد الله بن قيم الجوزية، ولد سنة 691 هـ، الفقيه الأصولي، المفسر، النحوي، برع في المذهب الحنبلي، من تلاميذ ابن تيمية وحبس معه، توفي سنة 751 هـ. انظر ذيل طبقات الحنابلة، ابن رجب، ج 5، ص 170 – 175.

(22) عبد الرحمن بن عمرو بن يحمد، أبو عمرو الأوزاعي، عالم أهل الشام، كان مولده في حياة الصحابة سنة 88هـ، قيل إنّه كان في بعلبك، وتوفي في بيروت سنة 157هـ. سير أعلام النبلاء.

(23) سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري الكوفي، شيخ الإسلام، إمام الحفاظ، فقيه صنف كتاب الجامع، ولد سنة 97هـ بالبصرة، وتوفي سنة 161هـ، انظر: سير أعلام النبلاء620/6، تهذيب التهذيب111/4، البداية والنهاية34/10.

(24) أبو سعيد العنبري، الأسدي مولاهم البصري، اللؤلؤي، ولد سنة 135هـ. انظر: سير أعلام النبلاء.

(25) انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر، شفاء العليل، ص128–129، هـ–1978م، دار المعرفة، بيروت.

وليس للجبر أصل من الكتاب والسنة، كما روى الخلال[26] عن بقية[27] قال: "سألت الزبيدي[28] والأوزاعي عن الجبر، فقال الزبيدي: أمر الله أعظم، وقدرته أعظم من أن يجبر أو يعطل، ولكن يقضي ويقدّر ويخلق، ويجبل عبده على ما أوحى، قال الأوزاعي: ما أعرف للجبر أصلًا من القرآن والسنة، فأهاب أن أقول ذلك، ولكنّ القضاء والقدر والجبل والخلق، فهذا يعرف من القرآن والحديث"[29].

واللفظ الأسلم الذي أطلقه السلف بدل الجبر هو (الجبل)[30]؛ لأنّه جاءت به السنة؛ كما جاء في الحديث أن النبي –صلى الله عليه وسلم – قال للأشج عبد القيس: "إنّ فيك خلقين يحبّهما الله: الحلم والأناة، فقال: "أخلقين تخلّقت بهما أم خلقين جُبلت عليهما؟ فقال: بل خلقين جُبلت عليهما"، فقال الحمد لله الذي جبلني على خُلقين يحبهما الله"[31].

ويقول الإمام الخطابي[32]: "قد يحسب كثير من الناس أنّ معنى القدر من الله والقضاء منه الإجبار والقهر للعبد على ما قضاه وقدره، ويتوهّم أن فلج [33] آدم بالحجة على موسى[34] إنّما كان من هذا الوجه، وليس الأمر في ذلك على ما يتوهمونه، وإنّما معناه الإخبار عن تقدّم علم الله سبحانه بما يكون من أفعال العباد، وإكسابهم وصدورها عن تقدير منه، وخلق لها خيرها وشرها، والقدر اسم لما صدر مقدرًا من فعل القادر، والقضاء في هذا معناه الخلق، كقوله عزّ وجلّ : ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ (فصلت 12)، أي خلقهن، وإذا كان الأمر كذلك فقد بقي عليهم من وراء علم الله فيهم أفعالهم وإكسابهم مباشرتهم تلك الأمور وملابستهم إياها عن قصد وتعمّد وإرادة واختيار، بل حجّة إنّما تلزمهم بها واللائمة تلحقهم عليها"[35].

فهذا الكلام للإمام الخطابي يوضح العلاقة بين القدر والجبر بشكل جليّ، فعلم الله تعالى بأفعال العباد وخلقها لهم لا يعني إجبارهم عليها، إنّما تقع هذه الأفعال بإرادة منهم، واختيار لها، ورضا عنها.

- **المطلب الثالث: ظهور القول بالجبر:**

تنسب هذه الفرقة كما يقول كتاب المقالات إلى الجهم بن صفوان[36]، أبو محرز السمرقندي مولى بني راسب، من أهل خراسان، وظهرت بدعته بترمذ، في أوائل المئة الثانية للهجرة تقريبًا، وكان ابتداء ظهور الجبرية مقاربًا لابتداء ظهور المعتزلة، ولعلّ الصراع العقائدي في هذه الفترة هو الذي ولّد ظهور هذا الغلو في جانب القدر، سواء بنفي أيّ دور للعباد في أفعالهم، وكون الإنسان كالشجرة في مهبّ الريح كما تقول الجبرية، أو بنفي خلق أفعال العباد عن الله، ونسبتها إلى العباد، كما تقول المعتزلة[37].

وممّن ذكر رأي الجهم في الجبر الشهرستاني[38]، وممّا نقله عنه قوله: "إنّ الإنسان لا يقدر على شيء، ولا يوصف بالاستطاعة، وإنّما هو مجبور في أفعاله ولا قدرة له ولا إرادة، ولا اختيار، وإنّما يخلق الله تعالى الأفعال فيه على حسب ما يخلق في سائر الجمادات، كما يقال: أثمرت الشجرة، وجرى الماء، وتحرّك الحجر، وطلعت الشمس، وغربت، والثواب والعقاب جبر، كما أنّ الأفعال كلها جبر، قال: وإذا ثبت الجبر فالتكليف أيضًا كان جبرًا"[39].

---

(26) أحمد بن هارون بن يزيد البغدادي الخلال، الإمام الحافظ الفقيه، ولد سنة234هـ أو في السنة التي تلتها، وتوفي سنة 311هـ. سير اعلام النبلاء.

(27) بقية بن الوليد (ختمع) بن صائد بن كعب بن حريز الحافظ العالم أبو يحمد الحميري، ولد سنة 110هـ، مات سنة 197هـ. انظر: سير أعلام النبلاء457/7.

(28) أبو الهذيل محمد بن الوليد بن عامر الزبيدي من أهل حمص، الحافظ الحجة القاضي، اشتهر بالفتوى، ولد في خلافة عبد الملك سنة 97هـ، توفي 149، انظر: تهذيب التهذيب 502/9، سير أعلام النبلاء380/6، الزركلي358/7.

(29) انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، درء تعارض العقل والنقل، ج1، ص246، دار الحديث، القاهرة 14227هـ – 2006م.

النجدي، عبد الرحمن بن قاسم، الدرر السنية في الأجوبة النجدية، ج1، ص176، ط1، 1385هـ – 1965م.

(30) جبله الله على كذا، إشارة إلى ما ركب فيه من الطبع الذي يأبى عن الناقل نقله، ومنه قوله عز وجل: "واتقوا الذي خلقكم والجبلة الأولين" أي المجبولين على أحوالهم التي بنوا عليها، المفردات، ص87.

(31) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان، رقم 17، ج1، ص189.

(32) أبو سليمان، حمد بن محمد بن إبراهيم بن خطاب البستي الخطابي، الحافظ اللغوي صاحب التصانيف، ولد سنة بضع عشرة وثلاثمائة، توفي في ببست سنة 388هـ. سير اعلام النبلاء.

(33) فلج بحجته: أحسن الإدلاء بها فغلب خصمه، المعجم الوسيط، مادة فلج، ص732.

(34) إشارة إلى حديث احتجاج آدم وموسى عليهما السلام الذي سيأتي الحديث عنه في موقف السنة من الجبر.

(35) الخطابي، حمد بن محمد، معالم السنن، شرح أبي داوود، ج4، ص297، ط1، 1411هـ، دار الكتب العلمية بيروت.

(36) الجهم بن صفوان الكاتب المتكلم أس الظلالة، ورأس الجهمية، كان ينكر الصفات، ويقول بخلق القرآن الكريم، قيل إن سلم بن أحوز قتله لإنكاره أن الله كلم موسى، توفي سنة 128 هـ. انظر سير أعلام النبلاء، وميزان الاعتدال في نقد الرجال، الذهبي.

(37) انظر: الذهبي، محمد بن أحمد، ميزان الاعتدال في نقد الرجال426/1، ت: على البيجاوي، ط1، 1382هـ–1963م، دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه.

المحمود 202.

(38) الأفضل محمد بن عبد الكريم بن أحمد الشهرستاني، أبو الفتح، شيخ أهل الكلام والحكمة، ولد سنه 467هـ، توفي 548هـ، اتهم بالمغالاة في التشيع. انظر: سير أعلام النبلاء.

(39) الشهرستاني، محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل، ج1، ص110–111، 1403هـ – 1983م، دار المعرفة، بيروت.

وقال البغدادي [40] عنه: "جهم الذي قال بالاضطرار والإجبار إلى الأعمال، وأنكر الاستطاعة كلها، وقال لا فعل ولا عمل لأحد غير الله تعالى، وإنّما تنسب الأعمال إلى المخلوقين على المجاز كما يقال: زالت الشمس، ودارت الرحى، من غير أن يكونا فاعلين، أو مستطيعين لما وصفتا به"[41].

ويبدو أنّ الأثر الخارجي كان له دور كبير في حياة الجهم وتشكّل أفكاره وبِدَعه، ومن هذه المؤثرات الأثر اليهودي، فقد أخذ الجهم عن الجعد بن درهم [42]الذي كان بدوره يقول بالجبر، ولكن القول به اشتهر عن تلميذه الجهم، وكان الجعد قد أخذ بدعته عن بيان بن سمعان[43]، وأخذ بيان بن سمعان عن طالوت ابن اخت لبيد بن أعصم زوج ابنته، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر النبي –صلى الله عليه وسلم– عن يهود باليمن[44].

ومن هذا يتبيّن أنّ القول بالجبر كان سابقًا على القول بالقدر عند المعتزلة[45]، ولكن انتشار واشتهار القول به إنّما كان على يد الجهم بن صفوان، الذي ظهر وقت ظهور المعتزلة، ولعلّ الصراع بينهما كان سببًا في انتشار قول كلّ منهما، ولعل كتّاب المقالات حين ربطوا القول بالجبر بالجهمية، إنّما أرادوا انتشار القول به الذي كان سببه دعوة الجهم، وحرصه الشديد على نشرها بين الناس، وإن كان أستاذه الجعد قد سبقه إلى القول بالقدر [46].

ومن الأثر الخارجي الذي أثّر في الجهم بن صفوان، أثر السمنية الهنود[47]، حين سألوه عدّة أسئلة عن الله تعالى، هل يدركه بإحدى الحواس فكانت أجابته بلا، فتحيّر الجهم، فلم يدرِ من يعبد أربعين يومًا، ثمّ إنّه استدرك حجّة مثل حجة زنادقة النصارى، يزعمون أنّ الروح الذي في عيسى –عليه السلام– هو روح الله من ذات الله، فإذا أراد أن يحدث أمرًا دخل في بعض خلقه، فتكلم على لسان خلقه، فيأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وهو روح غائبة عن الأبصار[48].

على هذه الحجّة الباطلة بنى الجهم معتقده المُبتدَع، بعد أن تزعزع أمام السمنية ولم يستطع محاجّتهم، وترك الصلاة أربعين يومًا؛ لأنه لم يدرِ مَن يعبد، وهذا يظهر الأثرين الهندي والنصراني عليه، بالإضافة إلى الأثر اليهودي، وكان هذا الانحراف والضلال الذي وقع فيه الجهم سببًا في مقتله، يقول يزيد بن هارون: لعن الله جهمًا، ومَن يقول بقوله، كان كافرًا جاحدًا، ترك الصلاة أربعين يومًا، زعم أنّه يرتاد دينًا، وأنّه شكّ في الإسلام، قتله سلم بن أحوز بأصبهان على هذا القول[49].

ومن الفرق التي تنسب إلى الجبرية، فرقتا (النجارية)[50] و(الضرارية) [51]، ولكن عند الرجوع إلى كلامهم نجد أنّ كلامهم لا يدلّ على الجبر، يقول الأشعري: "زعم الحسين بن محمد النجار[52]، وأصحابه وهم (الحسينية)، أنّ أعمال العباد مخلوقة لله، وهم فاعلون لها، وأنّه لا يكون في ملك الله سبحانه إلا ما يريده"[53]، وأمّا الضرارية

(40) عبد القاهر بن طاهر، أبو منصور، أحد أعلام الشافعية، نزيل خرسان، مات بإسفرايين سنة 429هـ. انظر: سير أعلام النبلاء.

(41) البغدادي، عبد القاهر بن طاهر، الفرق بين الفرق، ص211، ط1، 1405هـ–1985م، دار الكتب العلمية، بيروت.

(42) الجعد بن درهم، أصله من خراسان، وهو من الموالي، ويقال إنه من موالي بني مروان، سكن دمشق، وكان مؤدبًا لمحمد بن مروان آخر خلفاء بني أميه فلقب بالجعدي لأنّه تعلم منه مذهبه في القول بخلق القرآن والقدر وغير ذلك، قتل نحو سنة 118هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ج2، ص114.

(43) بيان بن سمعان التميمي النهدي، ظهر في العراق، وقال بإلهية علي رضي الله عنه، وأن فيه جزءًا من الإلهية متحدًا بناسوته، ثمّ تحوّل من بعده في ابنه محمد بن الحنفية، ثم في ولده أبي هاشم، ثم من بعده في بيان؛ يعني نفسه، قتله خالدبن عبد الله القسري أمير العراق. انظر تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام للذهبي.

(44) انظر: ابن كثير، إسماعيل بن عمر، البداية والنهاية ج9، ص350، ط1، 1966م، مكتبة المعارف بيروت، مكتبة النصر بالرياض.

(45) فرقة تنتسب إلى واصل بن عطاء الغزال الذي اعتزل الحسن البصري عندما اختلف معه في حكم مرتكب الكبيرة في أوائل القرن الثاني الهجري، وهذه الفرقة تقدّم العقل على النقل، وهم يؤمنون بأصول خمسة وهي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، والوعد والوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويسموى القدرية والوعيدية والعدلية. انظر: الفرق بين الفرق للبغدادي، وأصول تاريخ الفرق الإسلامية، مصطفى بن محمد بن مصطفى.

(46) المحمود، 203–204.

(47) قوم بالهند دهريون قائلون بالتناسخ، الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ص1557.

(48) انظر: أحمد بن حنبل، الرد على الزنادقة والجهمية، 93–95، ت: صبري بن سلامة شاهين، ط1، دار الثبات، الرياض.

(49) انظر: اللالكائي، هبة الله بن الحسن، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، ج3، ص379، ت: أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرياض.
المعايطة، عطا الله بخيت، جهود الصحابة والتابعين في تقرير العقيدة والرد على الفرق حتى نهاية العصر الأموي، ص909–912، ط1، الأثرية للطباعة، عمان.

(50) فرقة تنتسب إلى الحسين بن محمد النجار، قال عنهم البغدادي أنّهم وافقوا الأشاعرة على أنّ الله تعالى خالق أكساب العباد، وأنّ الاستطاعة مع الفعل، ووافقوا القدرية في نفي علم الله تعالى وسائر صفاته الأزلية، وقالوا في الإيمان إنّه هو المعرفة في الله تعالى وبرسله وفرائضه التي أجمع عليها المسلمون، والخضوع له والإقرار باللسان فمن جهل شيئًا من ذلك بعد قيام الحجّة به عليه أو عرفه ولم يقر به فقد كفر، انظر: الفرق بين الفِرق، ص155–156.

(51) أتباع ضرار بن عمرو، قال عنهم البغدادي أنّهم وافقوا الأشاعرة في أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى واكساب للعباد، ووافقوا المعتزلة في أنّ الاستطاعة قبل الفعل، وزادوا عليهم: إنّها قبل الفعل ومع الفعل وبعد الفعل، وإنّها بعض المستطيع، ومن الأشياء المنكرة التي قال بها ضرار بن عمرو أنّ الله تعالى يرى يوم القيامة بحاسة سادسة، وشكك في إيمان جميع عامة المسلمين، وأن سرائرهم ممكن أن تكون شركًا وكفرًا، انظر: الفرق بين الفِرق، ص160–161.

(52) الحسين بن محمد بن عبد الله النجار الرازي، يعتبر من المعتزلة، له كتاب في القضاء والقدر، توفي سنة 220هـ. انظر: الأعلام للزركلي 286/2.

(53) الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين، ص283، ط3، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

فقال عنهم: "والذي فارق ضرار بن عمرو[54]، فيه المعتزلة قوله إنّ أعمال العباد مخلوقة، وأنّ فعلًا واحدًا لفاعلين، أحدهما: خلقه وهو الله، والآخر: اكتسبه وهو العبد، وأنّ الله عزّ وجلّ فاعل لأفعال العباد في الحقيقة، وهم فاعلون لها في الحقيقة"[55].

وظاهر أقوالهم تلك لا تدلّ على أنّهم جبرية، بل على أنّهم في القدر على مذهب قريب من أهل السنة، ولعلّ إلحاقهم بالجبرية جاء على لسان المعتزلة، الذين يعتبرون كلّ مَن لم يقل بأنّ العباد يخلقون أفعالهم جبريًّا[56].

المبحث الثاني: الموقف من الجبر في الكتاب والسنة ورد شبهة الجبر عنهما.

- **المطلب الأول: موقف القرآن الكريم من الجبر ورد شبهة الجبر عنه:**

القرآن الكريم لم يستعمل مادّة الجبر بمعنى القدر، بل إنّ القرآن الكريم ردّ على من استعمل القدر بمعنى الجبر، وممّن ردّ عليهم القرآن الكريم وعابَ عليهم ذلك المشركون، حيث وردت آيات تردّ على استعمال المشركين للقدر بمعنى الجبر، وتبطل حجّتهم التي احتجّوا بها على الشرك، ومخالفة ما شرعه الله سبحانه وتعالى وذلك بحجّة الجبر، ومن هذه الآيات قوله تعالى: " ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ (148) قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ۖ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(149) ﴾ (الأنعام: 148-149).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ (النحل: 35).

وقال تعالى في سورة الزخرف على لسانهم أيضًا: ﴿وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم ۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ (20) أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (الزخرف: 20-21).

يقول الكلبي[57] في تفسير الآيتين من سورة الأنعام: "معناها: أنّهم يقولون إنّ شركهم وتحريمهم لما حرموا كان بمشيئة الله، ولو شاء الله أن لا يفعلوا ذلك ما فعلوه، فاحتجّوا على ذلك بإرادة الله له، وتلك نزعة جبرية، ولا حجّة لهم في ذلك، لأنّهم مكلفون مأمورون ألّا يشركوا بالله، ولا يحللوا ما حرم الله ولا يحرموا ما حلل الله، والإرادة خلاف التكليف"[58]. والذي أدّى بهم إلى ذلك القول وهذه النزعة الجبرية؛ أنّهم لم يفرقوا بين الإرادة الشرعية التي تتعلق بأوامر الله تعالى ونواهيه، والإرادة الكونية التي تتعلق بكلّ ما يقع في الكون من أفعال، وحتى ما يقع فيه من كفر وفسوق وعصيان يدخل ضمن الإرادة الكونية، أي أنّه لا يقع إلا بإرادة الله سبحانه وتعالى في هذا الكون، وهذا الكفر والفسوق والعصيان، لا يدخّل ضمن الإرادة الشرعية التي نهى فيها عن هذه الأفعال، فهم قالوا ما دام أنّ الشرك وقع منهم، وتحريمهم ما لم يحرمه الله تعالى قد وقع أيضا، فإنّ الله سبحانه وتعالى أراد ذلك ورضي عنه وأحبّه، صحيح أنّ الله تعالى أراده بالإرادة الكونية، ولكن الله تعالى لم يحبّه ولم يردّه بالإرادة الشرعية، ورد الله عليهم لو أنّ كلامهم هذا صحيح، فلماذا عذّب الذين قالوا مثل هذا الكلام من قبلهم؟

يقول سيد قطب [59]: "إنّهم يقولون: إنّهم مجبورون لا مخيّرون فيما اعتسفوا من شرك وضلال، فلو كان الله لا يريد منهم الشرك والضلال؛ لمنعهم بقدرته التي لا يعجزها شيء. ويقول: إنّ الله أمرهم بأوامر ونهاهم عن محظورات، وهذا ما يملكون أن يعلموه علمًا مستيقنًا، فأمّا مشيئة الله فهي غيب لا وسيلة لهم إليه، فكيف يعلمونه؟ وإذا لم يعلموه يقيناً فكيف يحيلون عليه؟ إنّ لله أوامر ونواهي معلومة علمًا قطعيًّا، فلماذا يتركون هذه المعلومات القطعية، ليمضوا وراء الحدس والخرص في واد لا يعلمونه؟"[60].

هذا هو موقف المشركين من الجبر كما سجله القرآن الكريم، أمّا موقف القرآن الكريم منه؛ فقد ذكر الله تعالى أنّ الإنسان مخيّر في اختيار الطريق الذي يريده، طريق الهداية أو طريق الضلال، ولم يجبره الله تعالى على طريق محدّد منهما، من هذه الآيات الذي ذكرت ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (الإنسان: 3)، أي بيّناه له ووضحناه وبصرناه به، وبيّنا له طريق الخير وطريق الشر، فهو في ذلك إمّا شقي وإما سعيد[61].

---

(54) ضرار بن عمرو القاضي ظهر في أيام واصل بن عطاء، قال عنه الذهبي له مقالات خبيثة. انظر: الذهبي، ميزان الاعتدال 328/2.

(55) الأشعري، ص281.

(56) المحمود، 207.

(57) محمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي، أبو القاسم، ولد سنة 693هـ في غرناطة، فقيه من العلماء بالأصول واللغة، توفي 741هـ. انظر: الاعلام للزركلي، ج6، ص221.

(58) الكلبي، محمد بن أحمد بن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل، ج2، ص24، ط4، 1403هـ - 1983م، دار الكتاب العربي، بيروت.

(59) سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي، ولد سنة 1906م في قرية موشية، في محافظة أسيوط من صعيد مصر، له العديد من المؤلفات أهمّها تفسير في ظلال القرآن، سجن عدة مرات في زمن عبد الناصر، أعدم سنة 1966م بتهمة الانتماء لجماعة الإخوان المسلمين. انظر: سيد قطب الشهيد الحي، صلاح الخالدي، ص51.

(60) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج3، ص1226-1227، ط12، 1406هـ-1986م، دار العلم، جدة.

(61) انظر: ابن كثير، عماد لدين اسماعيل ابن كثير الدمشقي، تفسير القران العظيم، تحقيق الألباني، دار التوفيقية للتراث، القاهرة ج8، ص188.

يقول سيد قطب: "ثم زوّده إلى جانب المعرفة، في القدرة على اختيار الطريق الواصل، ثمّ تركه ليختاره، أو ليضلّ ويشرد فيما وراءه من طرق لا تؤدي إلى الله"[62].

ومن الآيات الأخرى التي تدل على هذا الاختيار قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (البلد: 10)، يقول القرطبي في تفسير النجدين: "يعني الطريقين: طريق الخير وطريق الشرّ، أي بيّناهما له بما أرسلناه من الرسل، والنجد: الطريق في ارتفاع، وهذا قول ابن عباس وابن مسعود وغيرهما"[63].

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾ (فصلت: 17)، أي بصرناهم وبيّنا لهم ووضحنا لهم الحقّ على لسان نبيهم صالح عليه الصلاة والسلام، فخالفوه وكذبوه، وعقروا ناقة الله تعالى التي جعلها الله آية وعلامة على صدق نبيهم[64].

فلو كانوا مجبورين لقبلوا الهداية، ولكنّهم أعرضوا واختاروا الضلالة، وهذه الآيات فيها ردّ على مَن قال بالجبر، وأنّ الإنسان لا اختيار له ولا إرادة.

رغم هذه الآيات الواضحة والدالة على حريّة الاختيار للإنسان التي منحها الله تعالى إياها، إلّا أنّ مَن قال بالجبر تعلق بآيات أخرى، واعتقد أنّها تفيد الجبر مطلقًا، ويمكن تقسيم الآيات التي اعتمدوا عليها في القول بالجبر إلى عدّة فروع:

- **أولًا: آيات تنسب المشيئة إلى الله تعالى:**

من هذه الآيات التي تنسب المشيئة لله سبحانه وتعالى قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:9)، هذه الآية التي اشتبهوا أنّها تعني الجبر من قبل الله تعالى لعباده؛ تفيد أنّه لا يجري في ملك الله شيء إلا بمشيئة الله تعالى وإرادته، وقبل هذه الآية أثبت الله تعالى الاختيار للإنسان، حيث قال: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ (التكوير:8)، لكن مشيئة الإنسان لا تقع مستقلة عن مشيئة الله سبحانه وتعالى، وتقع تحت دائرة هذه المشيئة، وكأنّ مشيئة الإنسان دائرة صغيرة، تحيط بها دائرة أكبر هي مشيئة الله تعالى، وأنّه لو أراد سبحانه ألّا تكون لنا مشيئة لفعل ذلك، لكنّه أراد أن تكون لنا مشيئة واختيار.

وقد روي في سبب نزول هذه الآية الأخيرة من السورة: أنّه لما نزلت ﴿لمن شاء منكم أن يستقيم﴾، قال أبو جهل: الأمر إلينا إن شئنا استقمنا، وإن شئنا لم نستقم، فأنزل الله تعالى:﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير:9)[65].

وهذه الآية تدلّ على قدرة الله تعالى وحاجة الناس إليه، كما قال الشافعي[66]: "المشيئة إرادة الله قال الله عزّ وجلّ: :﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، فأعلم الله خلقه أنّ المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلّا أن يشاء الله"[67].

أمّا قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ ۚ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (النحل:9)، أي أنّ الله تعالى عليه بيان طريق الحقّ لكم من طريق الباطل، ولو شاء أن يهدي الجميع إلى الطريق الحقّ لفعل ذلك قسرًا دون اختيار منهم كالملائكة مثلًا، ولكن اقتضت مشيئته أن يختار البشر أحد الفريقين، فيكون منهم المؤمن ومنهم الكافر، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (118)إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾" (هود: 118-119).

إذًا جميع هذه الآيات التي تنسب المشيئة لله تعالى، لا تعني أنّ العبد ليست له مشيئة واختيار، وإنّما تعني أنّ مشيئة العبد داخلة تحت مشيئة الله تعالى ولا تخرج عنها.

- **ثانيًا: آيات تنسب الهداية والإضلال لله تعالى:**

هذه الآيات في القرآن الكريم نسبت الهداية والإضلال لله تعالى، وقد فُهمت الجبرية أنّ الإنسان لا دخل له في الاهتداء إلى الايمان أو الضلال عنه، وأنّ ذلك متعلق بالله تعالى وحده، فالإنسان مجبور على الهداية أو الضلال، ومن هذه الآيات التي نسبت الهداية أو الإضلال لله تعالى قوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ (السجدة: 13)، وقوله: تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ (يونس: 99)، وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم، فإذا كان الله تعالى وهو خالقهم لم يُكرههم على الإيمان، فليس عليك يا محمد –صلى الله عليه وسلم– أن تُكرههم وإنّما عليك البيان والتبليغ، والله تعالى هو الذي يهدي هداية التوفيق لمن يستحقها[68].

ومنها قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الأنعام: 111)، روي عن ابن عباس –رضي الله عنهما– في تفسير هذه الآية: ﴿ما كانوا ليؤمنوا﴾ أي أهل الشقاء، "إلا أن يشاء الله" أي أهل السعادة الذين سبق في علمه أن يدخلوا في الإيمان[69]، وجاءت هذه الآية ردًّا

(62) سيد قطب، في ظلال القرآن، ج6، ص3780.

(63) القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، ج20، ص65، مؤسسة مناهل العرفان، بيروت.

(64) ابن كثير، ج7، ص108.

(65) المصدر نفسه، ج8، ص222.

(66) محمد بن إدريس الشافعي، أبو عبد الله، أحد أئمة المذاهب الأربعة الفقهية المشهورة، ولد 150هـ بغزة، انتقل الى مكة وهو ابن سنتين، له مؤلفات أهمها الأم والرسالة، توفي 204هـ، انظر: تهذيب التهذيب 25/9، الزركلي 26/1.

(67) ابن القيم، شفاء العليل، ص45.

(68) انظر: ابن كثير، ج 4، ص 172.

(69) المصدر السابق، ج 3، ص 190.

على الكافرين الذين كانوا يشترطون شروطًا حتى يؤمنوا، فبين الله تعالى– كما قال ابن كثير –أنّ الهداية إليه لا إليهم، بل يهدي مَن يشاء ويضلّ مَن يشاء، وهو الفعّال لما يريد.

ومن هذه الآيات أيضًا، قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنعام: 125).

هذه الآية ظاهرها أن الله تعالى يهدي أناسًا بشرح صدورهم للإسلام، ويضلّ آخرين بتضييق صدورهم، فظنّ البعض أنّ الإنسان مجبر على الهداية أو الضلال، لكن المتدبر للآيات التي تتحدّث عن هداية التوفيق من الله تعالى، تبيّن أنّ الله تعالى اختصّ بهداية التوفيق ثوابًا لمَن هو أهل لها، من حيث التوجّه إلى الله تعالى، وطلب الهداية منه، والالتزام بأوامره، واجتناب نواهيه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ﴾ (محمد: 17)، فهذه مقدّمات للهداية يستحقّ صاحبها الهداية بعدها، وهذه الهداية اختصّ الله بها نفسه، ولم يعطها لأحد من خلقه، حتى لأحبّ خلقه إليه نبيه محمد –صلى الله عليه وسلم– حيث قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ (القصص: 56)، فلم يستطع النبي –صلى الله عليه وسلم– أن يهدي عمّه رغم حرصه على هدايته.

وفي المقابل فإنّ الآيات التي تحدّثت عن الإضلال، تجد فيها أنّ الله تعالى لا يعاقب بالإضلال إلا من أعرض عن ذكره، وخالف أمره ونهيه، فيعاقبه الله تعالى بتضييق صدره عن قبول الإسلام والانشراح له، وهذا مثل ضربه الله تعالى لقلب الكافر، قال ابن جرير: "وهذا مثل ضربه الله لقلب هذا الكافر لشدّة تضيقه إياه عن وصول الإيمان إليه، يقول: فمثّله في امتناعه عن قبول الإيمان، وضيقه عن وصوله إليه، مثل: امتناعه عن الصعود إلى السماء وعجزه عنه؛ لأنّه ليس في وسعه وطاقته، وكما يجعل الله صدره ضيّقًا حرجًا، يسلط الله تعالى عليه الشيطان فيغويه ويصدّه عن سبيل الله"[70].

- **ثالثًا: آيات تنسب الحسنة والسيئة لله تعالى:**

هذه الآيات تنسب الحسنة والسيئة لله تعالى، وقد فهم الجبرية أنّ هذه الآيات تعني أنّ الحسنة والسيئة من الله تعالى، وأنّ الإنسان لا دخل له في حدوثها وهو مجبور عليها، لكن عند تدبّر هذه الآيات، يتبيّن أنّ معناها غير ما فهمه الجبرية، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ (النساء: 78)، فهم الجبرية هذه الآية أنّ الله تعالى يجبر على عمل الحسنة أو السيئة، ولكن عند الرجوع إلى سبب نزول هذه الآية، نجد أنّها تتحدث عن المنافقين الذين كانوا إذا أصابهم الخصب نسبوا ذلك إلى الله تعالى، وإذا أصابهم الجدب نسبوه إلى الرسول –صلى الله عليه وسلم–، فردّ الله عليهم أنّ ذلك كله بقضائه وقدره، وقد قال ابن عباس: الحسنة والسيئة من عند الله، أما الحسنة فأنعم بها عليك وأما السيئة فابتلاك بها[71].

فالحسنة مضافة إلى الله تعالى من كلّ وجه، بينما السيّئة مضافة إليه من حيث خلقها، وأضافها الله إلى النفس التي عملتها، لذلك قال عزّ وجلّ في الآية الموالية: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ (النساء:79)، والله سبحانه لم ينسب إلى نفسه الشرّ في القرآن قطّ، لكنّه يدخل في عموم المخلوقات كقوله: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الزّمر: 62).

وكان النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول في دعاء الاستفتاح: "والخير كلّه في يديك والشرّ ليس إليك"[72]، أي أنّ الله تعالى لا يخلق شرًّا محضًا، وإنّما يكون شرًّا من وجه، وخيرًا من وجهٍ آخر، خلقه الله تعالى لحكمة اقتضاها سبحانه وتعالى.

- **رابعًا: آيات تنسب الطبع والقفل والختم على القلوب وما شابهها من المعاني لله تعالى:**

هذه الآيات تتحدّث عن الطبع على القلوب، أو الختم عليها، أو القفل وغيرها من المعاني المشابهة؛ كلّ هذه المعاني سببها الإعراض عن طاعة الله تعالى، والوقوع في الذنوب والمعاصي، وفي المقابل كلّ الآيات التي تتعلق بالثواب أو العقاب –التي ظاهرها الجبر– ما هي إلا ثواب من الله تعالى على طاعته، أو عقاب للعاصي على معصيته بعد البيان والتوضيح[73]، من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (6) خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (البقرة: 6،7): وقوله تعالى: ﴿بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (النساء: 155)، وقوله جلّ وعلا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (المنافقون: 3)، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ (الإسراء: 46)، وقوله: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف: 5) وغيرها كثير من الآيات التي تفيد المعنى نفسه أو قريبًا منه.

---

(70) المصدر نفسه، ج3، ص20.

(71) انظر: الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، ج2، ص29، ط1، 1418هـ–1997م، المطبعة العصرية، بيروت.
ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، ج4، ص236، ت: عامر الجزار، أنور الباز، ط2، 1421هـ–2001م، دار الوفاء، المنصورة.

(72) مسلم، كتاب صلاة المسافر، باب صلاة النبي صلى الله عليه وسلم ودعائه في الليل، رقم 771، ج6، ص57.

(73) انظر: البخيت، محمد حسن رباح، أفعال العباد بين الجبر والاختيار، ص265، 1417هـ–1996م، رسالة دكتوراة في جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، السودان.

يقول ابن القيم: "وزعمت الجبرية أنّ الله أكرهها على ذلك وقهرها عليه، وأجبرها من غير فعل منها، ولا إرادة ولا اختيار ولا كسب البتة، بل حال بينها وبين الهدى ابتداء، من غير ذنب، ولا سبب من العبد يقتضي ذلك، بل أمره وحال مع أمره بين الهدى، فلم ييسر إليه سبيلًا، ولا أعطاه عليه قدرة، ولا مكّنه منه بوجه، وأراد لبعضهم بل أحبّ له الضلال والكفر والمعاصي ورضيه منه". ثم يبيّن ابن القيم سبب عدم هدايتهم فيقول: "فإنه سبحانه جعل ذلك عقوبة لهم، وجزاء على كفرهم وإعراضهم عن الحقّ بعد أن عرفوه، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ (الصف: 5)، وقال: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (المطففين: 14)، وقال: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (الأنعام: 110)، وقال: ﴿ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم﴾ (التوبة: 127)، فإنّه إذا دعا عبده إلى معرفته ومحبته وذكره وشكره؛ فأبى العبد إلّا إعراضًا وكفرًا، قضى عليه بأن أغفل قلبه عن ذكره، وصدّه عن الإيمان به، وذلك عدل منه فيه، وتكون عقوبته بالختم، والطبع، والصدّ عن الإيمان" [74].

- **المطلب الثاني: موقف السنة النبوية الشريفة من الجبر ورد شبهته عنها:**

كما أنّ هناك آيات تذكر أنّ الإنسان مخيّرٌ وليس مجبرًا على أفعاله، وهناك أحاديث كذلك، ومن هذه الأحاديث التي تذكر أنَّ الإنسان مخيّر، حديث عن أبي هريرة –رضي الله عنه–، أنّه سمع النبي –صلى الله عليه وسلم– يقول: "ما نهيتكم عنه فاجتنبوه، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم"[75]، ويدلّ هذا الحديث على أنَّ للإنسان إرادة واختيارًا، يستطيع بها اجتناب ما نهى عنه النبي–صلى الله عليه وسلم–، وفعل ما أمر به النبي –صلى الله عليه وسلم–، ولو كان الإنسان مجبرًا على أفعاله لما كان لهذا الحديث معنى.

وحديث آخر يدلّ على الاختيار عن أبي سعيد الخدري –رضي الله عنه– قال: خطب النبي –صلى الله عليه وسلم– فقال: إنّ الله خيَّرَ عبدًا بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عند الله"[76].

وهذا الحديث فيه تصريح من النبي –صلى الله عليه وسلم– أنّ الله خيّره بين البقاء في الدنيا، وبين ما عنده من النعيم في الآخرة، فاختار ترك الدنيا والانتقال إلى الآخرة، فلو كان النبي –صلى الله عليه وسلم– مجبرًا كما تقول الجبرية لما خيّره الله تعالى، ولما اختار الدار الآخرة.

وحديث ثالث يدلّ على الاختيار رواه ابن عباس–رضي الله عنهما– عن النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "إنّ الله وضع عن أمّتي الخطأ، والنسيان، وما استكرهوا عليه"[77].

وهذا الحديث يدلّ على أنّ الله تعالى لا يحاسب الإنسان على الخطأ، وهو الذي يصدر عنه عفوًا دون تعمّد، وكذلك في حالة النسيان، فمثلًا إذا أكل الصائم ناسيًا في نهار رمضان؛ فإنّه لا يحاسب عليه، ولا يبطل صيامه، وكذلك إذا أُكره على الكفر أو المعصية تحت تهديد السلاح مثلًا،؛ فإنّه لا إثمَ عليه، وغير محاسب عليه كما قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ (النحل: 106)، وبمفهوم المخالفة فإنّ أفعال العباد الأخرى بغير هذه الأعذار محاسب عليها، ولا يمكن أن يحاسب عليها إلّا إذا كان مختارًا لها، وليس مجبرًا عليها.

أمّا الجبرية فقد تمسّكوا بأحاديث ظنّوا أنّها تفيد الجبر، مع أنّها لا تفيد ذلك، ومن هذه الأحاديث:

- **أولًا: حديث محاجة آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام:**

هذا الحديث من أشهر الأحاديث التي استدلّ بها الجبرية على مذهبهم في الجبر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "احتجّ آدم وموسى، فقال موسى: يا آدم أنت أبونا خيّبتنا وأخرجتنا من الجنة، فقال له آدم: أنت موسى اصطفاك الله بكلامه، وخطّ لك بيده، أتلومني على أمر قدّره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فحجَّ آدم موسى"[78].

فهذا الحديث يتحدّث عن القدر وعن علم الله تعالى السابق به، وقد احتجّ به من قال بالجبر، ورأى أنَّ ظاهره الجبر، ولكن في الحقيقة أنّ معناه غير ذلك، فموسى –عليه السلام– يلوم أبانا آدم عليه الصلاة والسلام ويقول له: خيّبتنا وأخرجتنا من الجنة، أي كنت سببًا في خيبتنا وإغوائنا بالخطيئة التي ترتب عليها إخراجك من الجنة، فردّ عليه آدم عليه الصلاة والسلام وقال له: أتلومني على أمر قد قدّره الله تعالى عليّ قبل خلقي بأربعين سنة، يقول المازني[79]: "الظاهر أنّ المراد أنّه كتبه قبل خلق آدم بأربعين سنة، وذلك لأنَّ علم الله تعالى أزلي، وفي إحدى روايات مسلم يسأل آدم عليه السلام: فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل

(74) شفاء العليل، ص85،86.

(75) رواه مسلم، كتاب الحج، باب فرض الحج مرة العمر، رقمه: 1337، ج9، ص100.

(76) رواه البخاري كتاب الصلاة، باب الخوخة والممر في المسجد، رقمه: 466، ص82.

(77) ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، ت: الألباني، ص353، ط1، مكتبة المعارف، الرياض.

الألباني، صحيح الجامع الصغير وزيادته الفتح الكبير، ج1، ص 375، رقمه:1836. ط3، 1408هـ-1988م، المكتب الإسلامي، بيروت.

(78) رواه البخاري كتاب القدر، باب تحاجج آدم وموسى عند الله، رقم: 6614، ص108.

(79) أبو عثمان بكر بن محمد بن عثمان المازني، نحوي، متكلم من البصرة، توفي 247هـ. انظر: البداية والنهاية، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، أحمد الطنطاوي، ص47.

أن أخلق، قال موسى: بأربعين عامًا، قال آدم: فهل وجدت فيها ﴿وَعَصَىٰٓ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ (طه: 121) قال نعم"[80].

فحجَّ آدم موسى، أي غلبت حجّتُه حجةَ موسى –عليهما الصلاة والسلام– كما أخبر النبي –صلى الله عليه وسلم–، لكن هذا لا يعني الجبر في القضاء والقدر كما توهّمه الجبرية، ولكنَّه دليل على إثبات علم الله بما يكون من أفعال العباد وصدورها عن تقدير سابق[81].

قال ابن عبد البر[82]: "هذا الحديث أصل جسيم لأهل الحقّ في إثبات القدر، وأنَّ الله قضى أعمال العباد؛ فكلّ يصير لما قدّر له بما سبق في علم الله، وليس فيه حجّة للجبرية، وإن كان في بادئ الرأي يساعدهم" [83].

فآدم عليه الصلاة والسلام احتجّ بالقدر على المصيبة، وهي الإخراج من الجنة، ولم يحتجّ بها على الخطيئة، ويجوز الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، يقول شارح العقيدة الطحاوية: "الصحيح أنَّ آدم لم يحتجّ بالقضاء والقدر على الذنب، وهو كان أعلم بربّه وذنبه، بل آحاد بنيه من المؤمنين لا يحتجّ بالقدر، فإنَّه باطل، وموسى عليه السلام كان أعلم بأبيه وبذنبه من أن يلوم آدم على ذنب قد تاب منه وتاب الله عليه واجتباه وهداه، وإنّما وقع اللوم على المصيبة التي أخرجت أولاده من الجنة، فاحتجّ آدم بالقدر على المصيبة، لا على الخطيئة، فإنّ القدر يحتجّ به عند المصائب، لا عند المعائب[84].

فآدم قال لموسى عليهما الصلاة والسلام: "أتلومني على أمر قدره الله علي قبل أن أخلق بأربعين سنة"، وهو الخروج من الجنة، وليس قصده مخالفة الأكل من الشجرة، لأنَّ آدم عليه الصلاة والسلام تاب من الذنب، والتائب من الذنب كمن لا ذنب له، ولا يجوز لوم التائب باتفاق الناس [85].

- **ثانيًا: حديث ابن الديلمي عن رحمة الله تعالى أو عذابه لعباده:**

هذا الحديث قد يشتبه فيه الجبر، وهو يتحدّث عن رحمة الله تعالى أو عذابه لعباده، فعن ابن الديلمي[86] قال: "أتيت إلى أبي بن كعب فقلت له: وقع في نفسي شيء من القدر، فحدّثني بشيء لعلّ الله تعالى أن يذهبه من قلبي، فقال: لو أنَّ الله تعالى عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه؛ عذَّبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم؛ كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم، ولو أنفقت مثل أحد ذهبًا في سبيل الله تعالى ما قبله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أنَّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وأنَّ ما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو متَّ على غير هذا لدخلت النار، ثمَّ أتيت عبد الله ابن مسعود، فقال مثل ذلك، قال: ثمَّ أتيت حذيفة بن اليمان فقال مثل ذلك، ثمَّ أتيت زيد بن ثابت فحدثني عن النبي –صلى الله عليه وسلم – مثل ذلك"[87].

والشاهد في الحديث الذي يشتبه فيه الجبر: "لو أنَّ الله عذَّب أهل سماواته وأهل أرضه عذَّبهم وهو غير ظالم لهم"؛ وذلك لأنّ طاعات العباد وعباداتهم إذا قيست بما أنعم الله تعالى عليهم لا تساوي شيئًا، ولو عاملهم بعدله لاستحقوا العقوبة دون أن يكون ظالمًا لهم، يقول ابن القيم: "من المعلوم عقلًا وشرعًا وفطرة أنّ الله تعالى يستحقّ على عباده غاية التعظيم والإجلال والعبودية التي تصل إليها قدرته، وكلّ ما ينافي التعظيم والإجلال يستحقّ عليه من العقوبة ما يناسبه"[88].

ومع هذا الحق لله تعالى على عباده، ولكنَّ الله تعالى يعامل عباده برحمته: "ولو رحمهم كانت رحمته خيرًا لهم من أعمالهم"، ولولا رحمة الله تعالى ما دخل أحد الجنة بعمله كما قال صلى الله عليه وسلم: "سدِّدوا وقاربوا وأبشروا واعلموا أنَّه لن يدخل أحد الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله، قال ولا أنا، إلا أن يتغمدن الله برحمة منه وفضل"[89].

لكن هناك آيات تبين أنَّ دخول الجنَّة يكون بالعمل كقوله تعالى: "وتلك الجنَّة التي أورثتموها بما كنتم تعملون" (الزخرف: 72)، وكقوله: "سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون" (النحل: 32)، وأجاب علماء عن ذلك بعدة إجابات، منها ما قاله الإمام النووي: "معنى الآيات أنَّ دخول الجنَّة بسبب الأعمال، ثمَّ التوفيق للأعمال والهداية والإخلاص فيها وقبولها برحمة الله تعالى وفضله، فيصح أنَّه لم يدخل بمجرد العمل وهو مراد الأحاديث، ويصح بأنَّه دخل بالأعمال؛ أي بسببها وهي من الرحمة"[90].

---

(80) مسلم، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام، رقم الحديث: 652، ج16، ص202.

(81) انظر: ابن حجر، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج11، ص59، دار الفكر.

(82) يوسف بن عبد الله بن عبد بن محمد بن عبد البر القرطبي، من كبار حفاظ الحديث، مؤرخ، أديب، بحاثة، يقال له حافظ المغرب، ولد بقرطبة، توفي 463هـ. انظر: الأعلام للزركلي، ج9، ص316.

(83) ابن حجر، فتح الباري، شرح صحيح البخاري، ج11، ص509.

(84) ابن أبي العز الحنفي، علي بن علي، شرح العقيدة الطحاوية، ت: بشير محمد عيون، ص 154–155، ط2، 1408هـ – 1988م. مكتبة المؤيد الطائف، مكتبة دار البيان دمشق.

(85) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، ج 8، ص 178–179.

(86) عبد الله بن فيروز الديلمي ابن الصحابي الجليل فيروز كان في رفقة الصحابي الجليل معاذ بن جبل وكان يخدمه، توفي في خلافة عمر بن عبد العزيز، انظر: ابن عساكر المختصر، ج17، 228.

(87) أبو داود، سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، كتاب السنة، باب في القدر، ج4، ص225، رقم الحديث 4699، ت: محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الفكر، دمشق.

(88) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر، مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلة، اختصره محمد الموصلي، ج1، ص333، 1405هـ، دار الندوة، بيروت.

(89) صحيح البخاري، كتاب الرقائق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث 6467، صحيح مسلم، كتاب صفات المنافقين، باب لن يدخل الجنة أحد بعمله، رقمه 2816.

(90) صحيح مسلم، شرح النووي، ج17، ص161.

فالعمل سبب شرعي لدخول الجنَّة، ومَن لم يحصل على ذلك السبب لا يكون أهلًا لرحمة الله وفضله، يقول ابن حجر[91]: "ويظهر لي في الجمع بين الآية والحديث جواب آخر؛ وهو أن يحمل الحديث على أنّ العمل من حيث هو عمل لا يستفيد به العامل دخول الجنَّة، ما لم يكن مقبولًا، وإذا كان كذلك فأمر القبول إلى الله تعالى، وإنّما يحصل برحمة الله لمن يقبل منه"[92]،

ويضاف إلى هذه الإجابات: أنّ أعمال الطاعات كانت في زمن يسير والثواب لا ينفد، فالإنعام الذي لا ينفد في جزاء ما ينفد بالفضل لا بالمقابلة[93].

وهناك من جمع بين الآيات والأحاديث بما محصله: أنّ تحمل الآيات على أن الجنَّة تنال المنازل فيها بالأعمال، فإنّ درجات الجنَّة متفاوتة بحسب تفاوت الأعمال، وأن يحمل الحديث على دخول الجنة والخلود فيها[94].

- **ثالثا: كتابة الملك أعمال الإنسان وهو جنين:**

هذا حديث آخر من هذه الأحاديث التي استدلّ بها الجبرية، وهو حديث كتابة الملك لأعمال الإنسان وهو جنين، حيث روى ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وهو الصادق المصدوق: "إنَّ أحدكم يجمع في بطن أمّه أربعين يومًا، ثمَّ يكون علقة مثل ذلك، ثمَّ يكون مضغة مثل ذلك، ثمَّ يبعث الله إليه ملكًا بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد، ثمَّ ينفخ فيه الروح، فوالذي لا إله إلّا غيره، إنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإنَّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"[95].

هذا الحديث العظيم يدلّ على صدق نبوَّة الرسول صلى الله عليه وسلم؛ وهو يتحدّث عن مراحل تطوّر الجنين في بطن أمه، وهو موافق لما جاء في القرآن الكريم عن هذه المراحل، حيث قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ (المؤمنون: 13–14)، وكذلك موافق لما أثبته العلم الحديث عن هذه المراحل، ويتحدث هذا الحديث أيضًا عن أمور غيبية، وهي نزول الملك بعد هذه المراحل، ونفخ الروح في الجنين، وكتابة أربع كلمات: الرزق، والأجل، والعمل، والشقاء أو السعادة، وكتابة الملك لهذه الأمور لا ينفصل عن علم الله تعالى؛ وذلك لأنَّ الله يظهر ذلك للملك، ويأمره بإنفاذه وكتابته، وإلا فقضاء الله تعالى سابق على ذلك، وعلمه وإرادته وكل ذلك موجود في الأزل[96].

وفي هذا الحديث اعتبر الجبرية أنّ كتابة الملك فيه تعني الجبر، ولكن هذا الحديث عند فهمه لا يعني الجبر؛ لأنَّ كتابة الملك هي بإذن الله تعالى، وهو الذي كتب هذه الكلمات في اللوح المحفوظ، وكتابته لا تعني الجبر وإنَّما هي تقرير لما يقع في حياة الإنسان، وهذه الكلمات منها ما يكون الإنسان فيها مسير، مثل: الأجل والرزق، بمعنى أنّ الأجل والرزق محدودان للإنسان، كما جاء في الحديث الشريف عن حذيفة أنَّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– قال: "إنّ روح القدس نفث في روعي أن نفسًا لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها، فاتّقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنَّ أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله، فإنَّ الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته"[97].

ومعنى قول النبي –صلى الله عليه وسلم– أجملوا في الطلب، أي اطلبوا الرزق برفق واعتدال أجمل من طلبه بعنف، ولا يحملنَّ أحدكم استبطاء الرزق وتأخّره، وهذا فيما يبدو له، ولكنَّ مقدار الرزق وموعده مقدر عند الله، لكنَّ البعض يستعجله قبل وقته المقدر له فيطلبه بالحرام، فيناله في وقته المحدّد لكن بمعصية الله تعالى، ولا يعني الحديث عدم السعي لطلب الرزق، ولكن طلبه برفق وبالحلال، فيأخذ ما كتبه الله له من الرزق.

وأمّا العمل والشقاوة والسعادة، فتدخل فيما يختاره الإنسان بنفسه من عمل يعمله صالحًا كان أو غير ذلك، وهو كما ذكرت في الآيات التي تحدثت عن الهداية والضلال، هو يختار أحد الطريقين، الذي ينبني عليه، السعادة أو الشقاوة، ومن هذه الآيات، قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل: 7–10)، وكلّ ذلك يدخل ضمن مشيئة الله تعالى وإرادته، التي لا يخرج عنها شيء.

- **رابعًا: الختم بعمل أهل الجنة أو بعمل أهل النار:**

أما ختم العمل بعمل أهل النار أو بعمل أهل الجنة، فيمكن أن يفسّر بحديث آخر عن سهل بن سعد رضي الله عنهما، أنَّ النبي –صلى الله عليه وسلم– قال: "إنَّ العبد ليعمل فيما يرى الناس عمل أهل الجنة، وإنّه لمِن أهل النار، ويعمل فيما يرى الناس عمل أهل النار، وهو من

(91) علي بن محمد بن أبي سليمان أيوب بن حجر، أبو الطيب، المحدّث الثقة، وثّقه أبو القاسم بن عساكر، وأرّخه في سنة بضع وعشرين وثلاثمائة محمد بن الذهبي في تاريخه. انظر: سير أعلام النبلاء.

(92) ابن حجر، فتح الباري، ج11، ص296.

(93) المصدر السابق، ج 11، ص296.

(94) المصدر نفسه، ج11، ص295–296.

(95) صحيح البخاري، كتاب القدر، باب في القدر، رقمه 6594، ص1047.

(96) صحيح مسلم بشرح النووي، ج16، ص192.

(97) الألباني، محمد ناصر الدين، صحيح الجامع الصغير، رقم الحديث: 2085، ج1، ص419.

أهل الجنة، وإنَّما الأعمال بخواتيمها"، وسبب قول النبي –صلى الله عليه وسلم– لهذا الحديث، أنَّ أحدًا من المسلمين أبلى بلاء حسنا في معركة مع النبي– صلى الله عليه وسلم–، وأثنى عليه الصحابة ثناءً كبيرًا، فقال صلى الله عليه وسلم: "من أحبَّ أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلينظر إلى هذا"، فقال رجل: أنا أصاحبه فأتبعه، فجرح الرجل جرحًا شديدًا؛ فاستعجل الموت فوضع نصل سيفه على الأرض وذبابه – مقدمته– بين ثدييه، ثم تحامل على سيفه فقتل نفسه، فقال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– الكلام السابق[98].

هذا الكلام يمكن أن ينطبق على المنافق أو المرائي الذي يكون باطنه غير ظاهره، أمّا من استقام باطنه وصلح ظاهره، فغالبًا لا ينطبق عليه سوء الخاتمة، يقول الإمام النووي: "والمراد بهذا الحديث أنَّ هذا قد يقع في نادر من الناس لا أنَّه غالب فيهم، ثمَّ إنَّه من لطف الله تعالى وسعة رحمته انقلاب الناس من الشرّ إلى الخير في كثرة، وأمّا انقلابهم من الخير إلى الشرّ في غاية الندور ونهاية القلة، وهو نحو قوله تعالى: "إن رحمتي سبقت غضبي وغلبت غضبي"[99]، ويدخل في هذا من انقلب إلى عمل النار بكفر أو معصية، لكن يختلفان في التخليد وعدمه؛ فالكافر يخلد في النار والعاصي الذي مات موحّدًا لا يخلد فيها، ولا يعني ذلك ترك الأعمال الصالحة بحجّة سبق الكتاب، أو عمل المعاصي بنفس الحجة، بل تجبّ الأعمال والتكاليف التي ورد الشرع بها، وكلّ ميسّر لما خلق له لا يقدر على غيره، ومَن كان من أهل السعادة يسّره الله لعمل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة يسّره الله لعملهم كما قال فسنيسره لليسرى وللعسرى"[100].

وفي المقابل قد يكون العبد كافرًا حينًا من الدهر، كأن يولد غير مسلم ويهديه الله سبحانه وتعالى للإسلام، أو يكون ملحدًا ويهتدي إلى الإيمان، أو عاصيًا ولكنّه في آخر عمره يستغفر الله سبحانه وتعالى ويتوب اليه، فيختم له بحسن الخاتمة، كما قال صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله بعبد خيرًا استعمله، فقيل له كيف يستعمله يا رسول الله، قال يوفقه لعمل صالح قبل الموت"[101]، فهذا قد يفسر به قول النبي – صلى الله عليه وسلم– أنَّ العبد يعمل بعمل أهل النار واقترابه من دخولها، ولكنّه في علم الله سبحانه وتعالى مكتوب عنده أنَّه يعمل قبل موته بعمل أهل الجنة، فيكون من أهلها ويدخلها.

- **خامسًا: كتابة أهل الجنة وأهل النار قبل خلقهم:**

ومن الأحاديث الأخرى التي قد يشتبه الجبر في فهمها، حديث رواه الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: "كنّا في جنازة في بقيع الغرقد فأتانا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– ومعه مخصره [العصا القصيرة] فنكس، فجعل ينكث لمخصرته، ثم قال ما منكم من أحد من نفس منفوسة إلا كتب مكانها من الجنة والنار، وإلا كتبت شقيّة أو سعيدة، قال رجل يا رسول الله أفلا نتّكل على كتابنا وندع العمل؛ فمن كان منا من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، فقال: اعملوا فكلّ ميسر، أمّا أهل السعادة فييسّرون بعمل أهل السعادة، وأمّا أهل الشقاوة فييسّرون بعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى (٥) وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى (٦) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى (٧) وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى (٨) وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى (٩) فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ (الليل: 7–10)"[102].

هذا الحديث لا يعني أنّ القدر السابق يمنع العمل، ولا يوجب الاتكال على القدر، بل يوجب الجد والاجتهاد، وهذا ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم: "اعملوا فكلّ ميسّر"، فمن يريد السعادة يسير في طريقها ويأخذ بأسبابها حتى يصل إليها، ومن يريد الشقاوة فهو يختار طريقها ويسير فيه حتى يصل إليها، وهذا ما فهمه الصحابة رضوان الله عليهم عندما سمعوا كلام النبي صلى الله عليه وسلم، يقول ابن القيم: "لمَّا سمع بعض الصحابة ذلك قال ما كنت أشدُّ اجتهادًا مني الآن، وهذا ممّا يدل على جلالة فقه الصحابة، ودقة أفهامهم، وصحة علومهم؛ فإن النبي –صلى الله عليه وسلم– أخبرهم بالقدر السابق وجريانه على الخليقة بالأسباب، فإنَّ العبد ينال ما قدر له بالسبب الذي أقدر عليه ومكّن منه، وهُيِّئ له، فإذا أتى بالسبب أوصله إلى القدر الذي سبق له في أمّ الكتاب، وكلما زاد اجتهادًا في تحصيل السبب؛ كان حصول المقدور أدنى إليه، فالقدر السابق مُعين على الأعمال، ويحثّ عليها، ومقتضٍ لها، لا أنّه منافٍ لها وصادٌّ عنها[103].

ومثل هذا الحديث أحاديث أخرى تفهم بهذا الفهم نفسه، من كتابة الله تعالى لأهل الجنة أو لأهل النار وعملهم في الدنيا؛ منها حديث عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: خرج علينا رسول الله –صلى الله عليه وسلم– وفي يده كتابان، فقال: أتدرون ما هذان الكتابان؟ قلنا: لا إلا أن تخبرنا، فقال للذي في يده اليمنى: "هذا كتاب من ربّ العالمين – تبارك وتعالى – بأسماء أهل الجنة وأسماء آبائهم، وقبائلهم، ثمَّ أجمل على آخرهم، فلا يزاد فيهم، ولا ينقص منهم أحدًا، فقال أصحاب رسول

(98) انظر: البخاري، كتاب الرقاق، باب الأعمال بالخواتيم وما يخاف منها، رقم الحديث: 6493، ص 1033.

(99) البخاري، كتاب التوحيد، باب قوله تعالى:" بل هو قرآن مجيد، في لوح محفوظ" (البروج21–22)، " والطور، وكتاب مسطور" (الطور1–2)، رقم الحديث 7554، ص1196.

(100) صحيح مسلم بشرح النووي، ج16، ص 196.

(101) الترمذي، محمد بن عيسى، سنن الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث 2142، قال: هذا حديث حسن صحيح، ص 484. ت: الألباني، ط1، مكتبة المعارف، الرياض.

(102) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب قوله (وكذب بالحسنى)، رقم لحديث 4948، ص 814.

(103) ابن القيم، شفاء العليل، ص25–26.

الله – صلى الله عليه وسلم–: فلأيِّ شيء إذا نعمل إن كان هذا أمرًا قد فرغ منه؟ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سدّدوا، وقاربوا، فإنّ صاحب الجنة يختم له بعمل أهل الجنة، وإنّ عمل أيّ عمل، وإنَّ صاحب النار يختم له بعمل أهل النار، وإنّ عمل أي عمل"، ثمّ قال رسول الله –صلى الله عليه وسلم– بيديه، فنبذهما، ثمّ قال: "فرغ ربكم من العباد فريق في الجنة، وفريق في السعير"[104].

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها: توفي صبي، فقلت: طوبى له عصفور من عصافير الجنة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أولًا تدرين أنَّ الله خلق الجنة، وخلق النار، فخلق لهذه أهلًا، ولهذه أهلًا" [105].

وحديث آخر عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، قال: سمعت رسول الله –صلى الله عليه وسلم– يقول: "إنَّ الله –عزّ وجلّ– خلق خلقه في ظلمة، ثمَّ ألقى عليهم من نوره يومئذٍ، فمَن أصابه من نوره يومئذٍ اهتدى، ومن أخطأه ضلّ"، "قال ابن عمرو رضي الله عنهما، فلذلك أقول: جفّ القلم على علم الله عزّ وجلّ" [106].

فهذا الحديث لا يعني الصدفة في من أصابه نور الله أو مَن لم يصبه؛ وإنَّما أصابه هذا النُّور لأنَّ الله عز وجلّ يعلم أنَّ هذا سيكون صالحًا في الدنيا، ومَن لم يصبه النُّور لأنَّ الله تعالى يعلم أنَّ هذا لن يكون صالحًا في الدنيا بل كافرًا أو فاسقًا أو غير ذلك، وهذا ينطبق على حديث خلق الله للجنة أهلًا وللنار أهلًا، أو كتب أناسًا من أهل الجنة أو من أهل النار، بناء على علم الله تعالى لسلوك الإنسان طريق الهداية أو طريق الضلال، كما قال الصحابي عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: جفَّ القلم على علم الله تعالى، وهذا يفسّر هذه الأحاديث التي اشتبه لدى الجبرية منها الإجبار من الله تعالى للعبد على الهداية أو الضلال، وينبني على ذلك دخول الجنة أو دخول النار، هذا والله تعالى أعلم.

النتائج:

1. معنى القدر يختلف عن معنى الجبر وليسا بمعنى واحد.
2. ظهور الجبرية كان سابقًا لظهور المعتزلة، لكن انتشر القول بالجبر في وقت المعتزلة.
3. هناك مؤثرات خارجية كانت من أسباب ظهور القول بالجبر.
4. القرآن الكريم والسنة النبوية لم يستعملا كلمة الجبر بمعنى القدر، وإنّما استعملت السنة لفظ الجَبل بدل الجبر.
5. علماء السلف أنكروا إطلاق لفظ الجبر على أفعال العباد.
6. بعض آيات القرآن الكريم ذكرت أنّ الإنسان مخير، وليس مجبورًا على اختيار الهداية أو الضلال.
7. كلّ الآيات التي استشهد بها الجبرية لا تدلّ على الجبر إذا فهمت فهما صحيحًا.
8. هناك من الأحاديث النبوية ما يدلّ على أنّ الانسان مخيرٌ وليس مجبرًا.
9. الأحاديث التي استشهد بها الجبرية لا تدلّ على الجبر إذا فهمت فهمًا سليمًا.

التوصيات:

1. عمل دراسة موسّعة عن الجبر.
2. محاربة ظاهرة الجبر من قبل العلماء والدعاة؛ لما لها من آثار سلبية على الأمة.
3. عمل دراسات عن الآثار المترتبة على الجبر في مختلف المجالات: العقدية، والشرعية، والاجتماعية، والسياسية، وغيرها من المجالات.

References:

- Abu Dawud, S. I. (n.d.). *Sunan Abi Dawud* [Sunan of Abu Dawud] (M. M. ‘Abd al-Hamid, Ed.). Dar al-Fikr.
- Al-Albani, M. N. (1988). *Sahih al-jami‘al-saghir wa ziyadatuhu al-fath al-kabir* [The authentic small collection and its additions] (3rd ed.). Al-Maktab al-Islami.
- Al-Ash‘ari, A. H. A. I. (n.d.). *Maqalat al-islamiyyin wa ikhtilaf al-musallin* [Articles of the Muslims and the differences among the worshippers] (3rd ed.). Dar Ihya’ al-Turath al-‘Arabi.
- Al-Baghdadi, A. Q. T. (1985). *Al-Farq bayn al-firaq* [The difference between the sects] (1st ed.). Dar al-Kutub al-‘Ilmiyyah.
- Al-Bakhit, M. H. R. (1996). *Af‘al al-‘ibad bayn al-qada’ wa al-qadar* [The actions of servants between predestination and free will] (Publication No. 1417) [Doctoral dissertation, University of the Holy Quran and Islamic Sciences].
- Al-Bajuri, I. (n.d.). *Hashiyah ‘ala jawharat al-tawhid* [Commentary on the jewel of monotheism] (M. A. al-Kilani, Ed.). Library of Alexandria.

(104) سنن الترمذي، كتاب القدر، باب ما جاء أن الله كتب كتاباً لأهل الجنة وأهل النار، رقم الحديث 2141، ص484، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ج1، ص 79 ،80، رقمه:88.

(105) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، رقم الحديث 2662، ج16، ص213.

(106) سنن الترمذي، كتاب الإيمان، باب ما جاء في افتراق الأمة، رقم الحديث 2642، ص 596، قال عنه الترمذي حديث حسن، صححه الألباني في صحيح الجامع الصغير، ج1، ص363، رقمه: 1764.

- Ibn Taymiyyah, A. I. (2006). *Dar' ta'arud al-'aql wa al-naql* [Warding off the contradiction between reason and revelation]. Dar al-Hadith.
- Ibn Abi al-'Izz al-Hanafi, A. I. (1988). *Sharh al-'aqidah al-tahawiyyah* [Commentary on the Tahawi creed] (B. M. 'Uyun, Ed.; 2nd ed.). Maktabat al-Mu'ayyad; Maktabat Dar al-Bayan.
- Al-Kalbi, M. I. (1983). *Al-Tashil li 'ulum al-tanzil* [Facilitation of the sciences of revelation] (4th ed.). Dar al-Kitab al-'Arabi.
- Al-Khattabi, H. I. (1991). *Ma'alim al-sunan* [Landmarks of the sunan] (1st ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
- Al-Lalaka'i, H. A. (n.d.). *Sharh usul i'tiqad ahl al-sunna wa al-jama'a* [Explanation of the foundations of belief of the mainstream Sunnis] (A. S. Hamdan, Ed.). Dar Tayyiba.
- Al-Ma'ayta, A. A. B. (n.d.). *Juhud al-sahabah wa al-tabi'in fi taqrir al-'aqidah wa al-radd 'ala al-firaq hatta nihayat al-'asr al-umawi* [The efforts of the companions and followers in establishing the creed and refuting the sects until the end of the Umayyad era] (1st ed., pp. 909–912). Al-Athariyah for Printing.
- Al-Mahmoud, A. R. (1997). *Al-Qada' wa al-qadar fi daw' al-kitab wa al-sunnah wa madhahib al-nas fihi* [Divine decree and predestination in light of the Quran and Sunnah and the people's schools of thought on it] (2nd ed.).
- Muslim, M. I. (n.d.). *Sahih Muslim bi sharh al-nawawi* [Sahih Muslim with the commentary of al-Nawawi]. Mu'assasat Manahil al-'Irfan.
- Al-Najdi, A. R. (1965). *Al-Durar al-saniyyah fi al-ajwibah al-najdiyyah* [The radiant pearls in Najdi answers] (1st ed.).
- Al-Qurtubi, M. I. (n.d.). *Al-Jami' li-ahkam al-qur'an* [The compendium of legal rulings of the Quran]. Mu'assasat Manahil al-'Irfan.
- Al-Raghib al-Isfahani, M. I. (n.d.). *Al-Mufradat* [The vocabulary] (M. S. al-Kilani, Ed.). Dar al-Ma'rifah.
- Al-Sahib, I. I. (1994). *Al-Muhit fi al-lughah* [The comprehensive ocean in linguistics] (M. A. Yasin, Ed.; 1st ed.). 'Alam al-Kutub.
- Al-Safarini, M. I. (n.d.). *Lawami' al-anwar al-bahiyyah wa sawati' al-asrar al-*
- Al-Bukhari, I. I. (n.d.). *Sahih al-Bukhari* [Authentic collection of al-Bukhari] (M. F. 'Abd al-Baqi, Numbered). Fayyad Library.
- Al-Dhahabi, M. I. (1963). *Mizan al-i'tidal fi naqd al-rijal* [The scale of balance in criticizing men] (A. al-Bijawi, Ed.; 1st ed., Vol. 1). Dar Ihya' al-Kutub al-'Arabiyyah.
- Al-Farahidi, K. I. (2003). *Kitab al-'ayn* [The book of 'Ayn] (A. H. Hindawi, Ed.; 1st ed.). Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah.
- Al-Fayruzabadi, M. I. (1995). *Al-Qamus al-muhit* [The surrounding ocean dictionary] (Y. al-Biqa'i, Ed.). Dar al-Fikr.
- Ibn Batta, U. I. (n.d.). *Al-Ibanah 'an shari'at al-firqah al-najiyah, kitab al-qadar* [The clarification of the law of the saved sect, book of decree] (A. al-Ithiyubi, Ed.) [Academic thesis, Umm al-Qura University].
- Ibn Hajar, A. I. (n.d.). *Fath al-bari, sharh sahih al-bukhari* [Victory of the creator: Commentary on Sahih al-Bukhari]. Dar al-Fikr.
- Ibn Hanbal, A. (n.d.). *Al-Radd 'ala al-zanadiqah wa al-jahmiyyah* [Refutation of the heretics and Jahmites] (S. I. S. Shahin, Ed.; 1st ed.). Dar al-Thabat.
- Ibn Kathir, I. I. (1966). *Al-Bidayah wa al-nihayah* [The beginning and the end] (1st ed.). Maktabat al-Ma'arif; Maktabat al-Nasr.
- Ibn Kathir, I. I. (n.d.). *Tafsir al-qur'an al-'azim* [Exegesis of the great Quran] (M. N. al-Albani, Ed.). Dar al-Tawfiqiyya li al-Turath.
- Ibn Majah, M. I. (n.d.). *Sunan Ibn Majah* [Sunan of Ibn Majah] (M. N. al-Albani, Ed.; 1st ed.). Maktabat al-Ma'arif.
- Ibn Manzur, M. I. (2004). *Lisan al-'arab* [The tongue of the Arabs] (3rd ed.). Dar Sader.
- Ibn Qayyim al-Jawziyya, M. I. (1985). *Mukhtasar al-sawa'iq al-mursala 'ala al-jahmiyya wa al-mu'attila* [Abridgment of the sent thunderbolts against the Jahmites and deniers] (M. al-Mawsili, Abridged). Dar al-Nadwa.
- Ibn Qayyim al-Jawziyya, M. I. (1978). *Shifa' al-'alil* [Healing of the sick]. Dar al-Ma'rifa.
- Ibn Taymiyyah, A. I. (2001). *Majmu' al-fatawa* [Compendium of legal rulings] ('A. al-Jazzar & A. al-Baz, Eds.; 2nd ed.). Dar al-Wafa'.

- Al-Tirmidhi, M. I. (n.d.). *Sunan al-tirmidhi* [Sunan of al-Tirmidhi] (M. N. al-Albani, Ed.; 1st ed.). Maktabat al-Ma‘arif.
- *The Holy Quran*.
- Al-‘Ali, I. (1999). *Sahih al-sirah al-nabawiyyah* [The authentic prophetic biography]. Dar al-Nafa’is.
- *athariyyah* [The brilliant radiant lights and the striking textual secrets]. Al-Maktab al-Islami.
- Sayyid Qutb. (1986). *Fi zilal al-qur’an* [In the shade of the Qur’an] (12th ed.). Dar al-‘Ilm.
- Al-Shahrastani, M. I. (1983). *Al-Milal wa al-nihal* [Religions and sects]. Dar al-Ma‘rifah.
- Al-Shawkani, M. I. (1997). *Fath al-qadir* [The opening of the omnipotent] (1st ed.). Al-Matba‘ah al-‘Asriyyah.